الفصل السادس

فى فارس وروسيا وتركيا

أخذ جمال الدين ينتقل بين باريس ولندن إلى أوائل فبراير سنة ١٨٨٦ (جمادى الأولى سنة ١٣٠٣).

فى فارس

ثم استدعاه ناصر الدين شاه فارس فلبى الدعوة وقصد إلى طهران فاستقبله الشاه بصدر رحب، وأثنى على فضله وجعله مستشاره الخاص فى إصلاح شئون بلاده، فكان له نعم المرشد الأمين، وكانت لهجته صريحة كعادته فى نصح الشاه، وأشار عليه بتغيير كل شأن معيب من شئون الحكومة، وقال بضرورة اشتراك الأمة فى الحكم، على أن الشاه لم تألف نفسه إقامة الشورى فى بلاده، فتنكر لجمال الدين إذ رآه ميالاً إلى إقامة النظم الدستورية.

ولما أدرك جمال الدين تغير الشاه استأذنه فى السفر فأذن له.

فى روسيا

فذهب إلى روسيا وزار عواصمها، فاستقبله الخاصة بالتجلة والاحترام لما سمعوه من مكانته، وكتب عدة مقالات فى الصحف الروسية وكانت لهجته معبرة فى إظهار دسائس السياسة الإنجليزية.

وقد دعاه القيصر لمقابلته، واحتفى به كثيرًا، على أن القيصر فى خلال حديثه معه سأله عن سبب اختلافه مع الشاه، فذكر له رأيه فى الحكومة الشورية وأن

الشاه لا يشاطره رأيه فيها وينفر منها، ولم يكن القيصر أيضا يقبل هذا النوع من الحكم فقال: «إنى أرى الحق فى جانب الشاه إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته؟».

فلم يسكت جمال الدين على كلام القيصر، وأجابه فى جرأة وفصاحة: «أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون الملايين من رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداء يترقبون الفرص ويكتمون فى الصدور سموم الحقد والانتقام»، فبهت القيصر من هذا الرد، وعلت وجهه علامة الغضب وقطب حاجبيه، ولم يطل الحديث بعد ذلك بل قام من مجلسه إيذانا بانتهاء المقابلة، وودع جمال الدين بغير الشكل الذى استقبله به، إذ كان وداعًا فاترًا اثم أوعز إلى كبار رجال حاشيته أن يسرعوا متلطفين لإخراجه من روسيا.

فى فارس مرة أخرى

ترك جمال الدين روسيا. وأخذ يتجول فى أوروبا. ولما كان معرض باريس العام سنة ١٨٨٩ رجع جمال الدين إليها، وفى عودته منها التقى بالشاه فى ميونخ عاصمة بافاريا، فاعتذر له عما فرط منه ودعاه إلى صحبته إذ كان يرغب فى الانتفاع بعلمه وتجاريبه، فأجاب الدعوة، وسار معه إلى فارس، وأقام فى طهران، فحفه علماء فارس وأمراؤها وأعيانها بالرعاية والإجلال.

واستعان به الشاه على إصلاح أحوال المملكة وسن لها القوانين الكفيلة بإصلاح شئونها، فعمل بجد فيما عهد إليه ووضع مشروع دستور لفارس يجعلها ملكية دستورية، ولكنه استهدف لسخط أصحاب النفوذ فى الحكومة، وخاصة الصدر الأعظم، فوشوا به عند الشاه، وأسر إليه الصدر الأعظم أن هذه القوانين وخاصة الدستور تؤول إلى انتزاع السلطة من يده، فأثرت الوشايات فى نفس الشاه، وبدأ يتنكر للسيد، ولما اطلع على مشروع الدستور هاله الأمر حين رأى أن حكمه سيكون مقيدا وأن المجلس النيابى الذى يفرضه الدستور سيجعل الأمة أوسع سلطانًا من الشاه، فقال لجمال الدين: «أيصح أن أكون يا حضرة

السيد وأنا ملك ملوك الفرس (شاهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين؟» فقال جمال الدين: «اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وأنفذ وأثبت مما هى الآن، واسمح لإخلاصى أن أؤديه صريحًا قبل فوات وقته، لا شك يا عظمة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك، ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية؟».

جاء هذا الحديث مصدقا لما وشى به الصدر الأعظم لدى الشاه فنفر من جمال الدين نفورًا شديدًا، وأحس بهذا التعبير فى موقف الشاه حياله، فاستأذن فى المسير إلى المقام المعروف (بشاه عبد العظيم) على بعد عشرين كيلو مترا من طهران، فأذن له، فوافاه به جم غفير من العلماء والوجهاء من أنصاره فى دعوة الإصلاح، فازدادت مكانته فى البلاد، وتخوف الشاه عاقبة ذلك على سلطانه، فاعتزم الإساءة إليه، ووجه إلى (شاه عبد العظيم) خمسمائة فارس قبضوا عليه، وكان مريضا، فانتزعوه من فراشه، واعتقلوه، وساقه خمسون منهم إلى حدود المملكة العثمانية، فنزل بالبصرة، فعظم ذلك على مريديه، واشتدت ثورة السخط على الشاه.

دعوة جمال الدين ضد الشاه

أقام السيد بالبصرة زمنًا حتى أبل من مرضه، ثم أرسل كتابًا إلى كبير المجتهدين فى فارس ميرزا محمد حسن الشيرازى، عدد فيه مساوئ الشاه، وخص بالذكر تخويله إحدى الشركات الإنجليزية حق احتكار التنباك فى بلاد فارس، وما يفضى إليه من استئثار الأجانب بأهم حاصلات البلاد، وكان هذا النداء من أعظم الأسباب التى جعلت كبير المجتهدين يفتى بحرمة استعمال التنباك إلى أن يبطل الامتياز، فاتبعت الأمة هذه الفتوى، وأمسكت عن تدخينه، واضطر الشاه خوف انتقاض الأمة إلى إلغائه، ودفع للشركة الإنجليزية تعويضًا، فخلصت فارس وقتئذ من التدخل الأجنبى.

شخوصه إلى أوروبا

مكث جمال الدين بالبصرة ريثما عادت إليه صحته، ثم شخص إلى لندن، فتلقاه الإنجليز بالإكرام، ودعوه إلى مجتمعاتهم السياسية والعلمية، وحمل على الشاه وسياسته حملات صادقة فى مجلة سماها (ضياء الخافقين)، ودعا الأمة الفارسية إلى خلعه، وقويت دعوة الحرية فى إيران، واشتد السخط على الشاه ناصر الدين إلى أن قتل سنة ١٨٩٦ بيد فارسى أهوج، وقيل إن للسيد دخلا فى التحريض على قتله، وتولى بعده مظفر الدين، واستمرت دعوة الحرية التى غرسها جمال الدين فى إيران تنمو وتترعرع حتى آلت إلى إعلان الدستور الفارسى سنة ١٩٠٦.

ذهابه إلى الآستانة وإقامته بها

وفيما هو بلندن ورد عليه كتاب من المابين الهمايونى[١] بواسطة رستم باشا سفير تركيا بدعوته إلى الآستانة، فاعتذر أولا، ثم ورد عليه كتاب آخر بتكرار دعوته فلبى الطلب، وذهب إلى الآستانة سنة ١٨٩٢.

وكانت هذه هى المرة الثانية لوروده هذه المدينة، والمرة الأولى كانت فى عهد السلطان عبد العزيز كما تقدم بيانه.

وقد يبدو غريبًا أن السلطان عبد الحميد الذى كان نصيرًا للاستبداد وخصما للحرية، يدعو إلى جواره أكبر زعيم للحرية فى الشرق، وأغلب الظن أنه أراد أن يخدم سياسته فى الجامعة الإسلامية باستصافته فيلسوف الإسلام، لكى يظهر للعالم الإسلامى انه يرعى العلم والعلماء من الأمم الإسلامية كافة، ومن ناحية أخرى فإن تركيا كانت هدفًا للمطامع الاستعمارية وكانت تحاربها. فبديهى أن

---

(١) السراى السلطانية.

رائد التحرر من الاستعمار يرحب بزيارة الآستانة لعله يتخذ منها قاعدة لمحاربة الاستعمار، ولو أن تركيا قرنت هذه الدعوة بإقامة دعائم الشورى فى بلادها وإصلاح ما فسد من شئون الحكم واعترفت للعرب بحقوقهم ووقفت حيالهم موقفًا كريمًا، لتغير مركزها ولصارت أكثر صمودًا للحملات الاستعمارية الأوروبية.

وقد لبى جمال الدين دعوة السلطان، آملا أن يرشده إلى إصلاح الدولة العثمانية، لأن مقصده السياسى هو إنهاض دولة إسلامية أيًّا كانت إلى مصاف الدولة العزيزة القوية، فسار إلى الآستانة لتحقيق هذا المقصد، وحفه عبد الحميد بالرعاية والإكرام، وأنزله منزلاً كريمًا فى قصر بحى (نشان طاش)، من أفخم أحياء الآستانة، وأجرى عليه راتبًا وافرًا، قيل إنه خمس وسبعون ليرة عثمانية فى الشهر.

ومضت مدة وجمال الدين له عند السلطان منزلة عالية، ثم ما لبث أن تنكر له، وأساء به الظن، إذ كان من أخص صفات عبد الحميد إساءة الظن بالناس كافة، وخاصة بمن يتصلون به، والإستماع إلى الوشايات والدسائس، وكان الشيخ أبو الهدى الصيادى الذى نال الحظوة الكبرى عند مولاه يكره أن يظفر أحد بثقته، فوشى بالسيد عند السلطان وأوغر عليه صدره فأحيط السيد بالجواسيس يحصون عليه غدواته وروحاته ويرقبون حركاته وسكناته.

وقيل إن من أسباب استماع عبد الحميد لوشايات الواشين أن السيد جمال الدين التقى مرة بالخديو عباس حلمى الثانى خديو مصر إذ كان يرغب عباس فى مقابلته لما كان يسمعه وهو على الأريكة الخديوية عن فضل الفيلسوف الأفغانى، فلما طلب مقابلته كان جوابه: إنه لابد لذلك من اذن السلطان. فاستأذن غير مرة بواسطة بعض رجال المابين، فكانوا يرجئون ويسوفون فى الجواب، وبينما كان جمال الدين جالسًا فى المتنزه المعروف (بالكاغدخانة) بالآستانة فى أصيل أحد الأيام جاء الخديو عباس حلمى وحياه وجلس وإياه يتحدث إليه، فطار الجواسيس إلى السلطان بالخبر، فأرسل يستدعيه إليه ولما لقيه قال: أتريد أن تجعلها عباسية؟ يشير إلى الخلافة. فقال جمال الدين:

«إن بنى العباس قد انقرضوا. وبنو على أولى». ولم يكن يعتقد أن السلطان يقصد عباس حلمى فى حديثه.

فبمثل هذه الأوهام كان الجواسيس يوسوسون للسلطان ويوغرون صدره على جمال الدين.

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان فى هذا الصدد فى كتاب «حاضر العالم الإسلامى»[١] أن السيد كان وعبد الله نديم الكاتب والخطيب المصرى المشهور فى متنزه (الكاغدخانة)، فصادفا الخديو عباس حلمى وسلم بعضهم على بعض وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك، فقيل إن الشيخ أبا الهدى قدم تقريرًا للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديو على الاجتماع فى (الكاغدخانة)، وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة، ويقول الأمير شكيب: إن السلطان يحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشاية[٢]، ولكنا نميل إلى الاعتقاد أنها تركت أثرًا فى نفسه، وغيرت قلبه على السيد.

وذكر أن الذى أدى إلى وحشة السلطان منه استمراره فى مجالسه على القدح فى شاه العجم ناصر الدين، مما حمل سفير إيران عليا الشكوى منه إلى السلطان، فاستدعاه، وطلب إليه الكف عن مهاجمة الشاه، فقبل، وكان فى يده حين قابل السلطان سبحة. فجمعها فى كفه وقال بصوت جهورى: «امتثالاً لإشارة أمير المؤمنين فإنى من الآن قد عفوت عن الشاه ناصر الدين». فدهش عبد الحميد من هذا الجواب وقال له «بحق يخاف منك الشاه خوفًا عظيمًا».

وخرج جمال الدين من حضرة السلطان إلى حجرة رئيس الأمناء فقال له بلطف «يا حضرة السيد إن إجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل. واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وأنت تلعب بالسبحة فى حضرته».

فقال جمال الدين «سبحان الله إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة، وليس من يعترض منهم، أفلا يكون لجمال الدين حق فى أن يلعب بسبحته

(١) تأليف المستر ستودارد الأمريكى وتعريب الأستاذ عجاج نويهض وفيه فصول وتعليقات قيمة للأمير شكيب أرسلان.

(٢) حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٠٣.

كيف يشاء؟» فترك رئيس الأمناء حجرته مهرولاً خائفًا من كلام جمال الدين.

وكان يخاطب السلطان بشجاعة لا يستطيع غيره أن يقلده فيها، ولم يدخر وسعًا فى تحذيره من الخونة من رجاله حتى قال له يومًا: «يا جلالة السلطان مللت من تعاطينا الشكاية، ومن غيرك صاحب الأمر؟ خذ بحزم جدك محمود وأقص الخائنين من خاصتك الذين يبعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال فى الولايات، خفف الحجاب عنك واظهر للملأ ظهورًا. يقطع من الخائنين الظهور. وأعتقد أن نعم الحارس الأجل».

وعند ذلك تنفس السلطان الصعداء وقال «ذكرتنى بعهد جدى محمود. وما أبعد الفرق بين محيطى ومحيطه، من حالة أوروبا فى زمانه وحالتها اليوم، بين رعيته والرعية اليوم».

ولكن حدث أن قتل الشاه سنة ١٨٩٦ فاشتدت الريبة فى جمال الدين، واتجهت إليه شبهة التحريض على قتله، فأمر السلطان بتشديد الرقابة عليه، ومنع أى أحد من الاختلاط به إلا بارادة سلطانية، فأصبح السيد محبوسًا فى قصره.

مرضه ووفاته

تواترت الروايات بأن جمال الدين مات شبه مقتول، وتدل الملابسات والقرائن على ترجيح هذه الرواية، فإن اتهامه بالتحريض على قتل الشاه، وتغير السلطان عبد الحميد عليه، وحبسه فى قصره، ووشايات أبى الهدى الصيادى»، مما يقرب إلى الذهن فكرة التخلص منه بأية وسيلة، هذا إلى أن الغدر والاغتيال كانا من الأمور المألوفة فى الآستانة.

وأصدق الروايات وأحقها بالثقة فيما نعتقد، ما ذكره الأمير شكيب أرسلان فى كتاب (حاضر العالم الإسلامى)، قال ما خلاصته: «إنه لما اشتد التضييق على السيد جمال الدين أرسل مستشار السفارة الإنجليزية يطلب منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الآستانة، فجاءه المستشار وتعهد له بذلك، فلما بلغ السلطان

الخبر أرسل إليه أحد حجابه يستعطفه أن لا يمس كرامته إلى هذا الحد، ولا يلتمس حماية أجنبية، فثارت فى نفسه الحمية والأنفة، وأخبر مستشار السفارة بأنه عدل عن السفر، ومهما كان فليكن، ولكن الرقابة عليه بقيت كما كانت، وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى فمه مرض السرطان، فصدرت الإرادة السلطانية بإجراء عملية جراحية يتولاها الدكتور قمبور زاده إسكندر باشا كبير جراحي القصر السلطانى، فأجرى له العملية الجراحية، فلم تنجح، وما لبث إلا أيامًا قلائل حتى فاضت روحه، ومن هنا تقول الناس فى قصة هذا السرطان، وهذه العملية الجراحية لقرب عهد المرض بتغير السلطان على السيد، وما كان معروفًا من وساوس عبد الحميد، فقيل إن العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمدا، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا، بحيث انتهت بموت المريض[١].

وذكر الأمير شكيب أن المستشرق المعروف الكونت (لاون استوروج) حدثه أن المترجم كان صديقه، فدعاه إليه بعد إجراء العملية الجراحية، وقال له إن السلطان أبى أن يتولى العملية إلا جراحه الخاص، وأنه هو رأى حال المريض ازدادت شدة بعد العملية، ورجا منه أن يرسل إليه جراحًا فرنسويا مستقل الفكر، طاهر الذمة، لينظر فيعقب العملية، فأرسل إليه الدكتور (لاردى)، فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة، وأن المريض قد أشفى بسبب ذلك، وعاد إلى استوروج، وأنبأه بهذا الأمر المحزن، ولم تمض أيام حتى فارق جمال الدين الحياة.

وذكر واحد ممن كانوا فى خدمة عبد الحميد، بعد أن روى له الأمير شكيب هذه القصة، أن قمبور زاده إسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الجريمة، وحقيقة الواقعة أنه كان بالآستانة طبيب أسنان عراقى اسمه (جارح)، يتردد كثيرًا على جمال الدين، ويعالج أسنانه، وكانت نظارة الضابطة (إدارة الأمن العام) قد استمالت (جارح) هذا بالمال، وجعلته جاسوسًا على

(١) حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٠٤.

السيد، وصار له عدوًّا فى ثياب صديق، وقال صاحب هذه الرواية إنه أراد مرة أن يمنع الطبيب المذكور من الاختلاط بجمال الدين، فأشار إليه ناظر الضابطة إشارة خفية، بأن يتركه، وفهم من الإشارة أنه يذهب إلى السيد، ويعالج أسنانه، بعلم من النظارة، والسيد لا يعلم بشىء من ذلك، ويطمئن إلى (جارح) ويثق به، ولم تمض عدة أشهر على حادثة الشاه حتى ظهر السرطان فى فك السيد من الداخل، وأجريت له عملية جراحية، فلم تنجح، وجارح هذا ملازم للمريض، وبعد موته كانوا يرونه دائمًا حزينًا كئيبًا، يبدو على وجهه الوجوم والخزى، مما جعلهم يشتبهون أن يكون له يد فى إفساد الجرح بعد العملية، أو فى توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل، ولما مات السيد بدأ الندم على الطبيب الأثيم وشعر بوخز الضمير يؤنبه على خيانته هذا الرجل العظيم.

وكانت وفاته صبيحة الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧، وما إن بلغ الحكومة العثمانية نعيه حتى أمرت بضبط أوراقه وكل ما كان باقيًا عنده، وأمرت بدفنه من غير رعاية أو احتفال فى مقبرة المشايخ بالقرب من نشان طاش، فدفن كما يدفن أقل الناس شأنًا فى تركيا، وظل قبره هناك إلى نقل رفاته إلى أفغانستان سنة ١٩٤٤.